الفستان الأبيض

للقصصي الانجليزي ستاكي أومونيير

بقلم الأديب نظمي خليل

عند ما يبلغ كل إنسان نهاية الطريق يقف المصور والمؤلف والمهندس والمثال ، كل يشير إلى عمله ويقول : « هذه هي آثاري ، سوف أنال بها تقدير الأجيال المقبلة » ولكن لا يبقى للممثل أو الموسيقي شيء إلا الذكريات التي تعلق بأذهان من يحبونها ؛ فقد تسمع إنساناً يقول لك « إيه بني كان ينبغي لك أن تسمع فلاناً أو تشاهد فلاناً » ولكن لو لم تكن قد سمعت الموسيقى أو شاهدت ذلك الممثل فإن هذا الكلام لا يترك فيك أثراً ..

ولكن الممثل أسوأ حظاً من الموسيقى لأن الناس يحاولون الآن بمختلف الطرق أن يحتفظوا بآثار الموسيقى ، ولكن ليس ثمة وسيلة للاحتفاظ بتلك الحالات النفسية العنيفة التي يكون عليها الممثل في ليالي مجده . فقد مضت هذه في طيات الزمن وغابت في زوايا الأساطير

خطرت لي هذه الأفكار الحزينة لأول مرة عند زيارتي « لجيلين برامكر » . فقد قابلت هذا الشيخ المسن في إحدى دور الكتب برأسه الجميل الممتاز ، وشعره الأبيض المتموج ، قد حمل نفسه في خفة ظاهرة ونشاط موفور على رغم انحناء عوده وتقوس ظهره

كنت كثير التردد على تلك الدار فألقاه دائماً مكباً على الجرائد والمجلات التي كنت أرغب في قراءتها . ثم جرنا خطأ يسير وقع في أحد أعداد « مجلة السبت » إلى الخوض في حديث عادي أعقبه لفتة منه ، ثم حديث عن الجو ، ثم انحناءة من جانبه وسؤال عن صحته من جانبي إلى أن اتفق أن خرجنا من الدار يوماً وسرنا معاً حتى نهاية الطريق

لقد شعرت بالميل إليه منذ أول مرة ، فقد ملك عليّ شعوري تعبيرُه الدقيق الواضح وما يحمله من عاطفة قوية مكبوتة ، حتى أن ميله لأتفه الأشياء كان يثير في نفسي أعمق الذكريات . فإن قال « ما أبهج هذا اليوم ! لم يكن هذا القول اصطلاحاً مألوفاً أو قولاً معتاداً ، بل كان إفصاحاً عن الفرح والغبطة لحياة الربيع ، والشمس المشرقة ، والخراف الصغيرة وهي تثب وتقفز على حافة المراعي الخضراء ! ولو قال : إني جد آسف ! جواباً لقولك : أني نسيت تذكرة السيارة فاضطررت لدفع الأجر مضاعفاً ، خيل إليك أن جميع أنواع الحزن قد تجمعت في تلك السحابة من الدموع التي تطفر من عينيه !

دعاني يوماً لزيارته ، وكان يقيم في الدور الأول من منزل صغير وحيداً ليس معه إلا إمرأة نصف قد انسلت إلينا في خطى خفيفة سريعة . لقد كانت الغرف كما وصفها فقيرة ، ولكنها لم تكن بالغة حد الفقر . قد تناثرت فيها قطع الأثاث والصور التي تحمل أعمق الذكريات ، فأدركت حينئذ مكانة الممثل . فلو أنه كان مصوراً لاستطعت أن أنظر إلى بعض آثاره فأعرف قدره ، ولكن ماذا نعمل حيال

ممثل قديم قضى أكثر عمره فى الماضى ! إن الموقف كان يثير الإشفاق والحزن

لا ريب أنه كان ممثلاً قديراً فى زمنه ؛ هـذا ما شعرت به وإن كنت لم أدر شيئاً عن حياته الأولى . ولم أرد أن أعرف أى الأدوار التى قام بها ، لأنى شعرت أنه ينبغى لى أن أعرف هذا من نفسى . ولم يكن هذا الشخص بالفخور الذى يتحدث عن أعماله ، ولـكنى استطعت أن أعرف عنـه بعض الشىء من الآثار المتناثرة التى كانت فى غرفته . فقد رأيت صورة له فى دور « ملفوليو » وغيره من أبطال شكسبير ؛ ثم رأيت صوراً عديدة مهداة إليه من كبار الممثلين ، وبذلك أخذت أمسك بخيوط حياته شيئاً فشيئاً . ومهما يكن ذلك المركز الذى وصل إليه فى عالم التمثيل فيما مضى فأنه كان لا يزال محتفظاً بتلك القوة التى تهز شخصاً وتستبد به من أعماق روحه . فقد شعرت أن كل شىء فى تلك الغرفة يسمو كالخيال

وعند ما أخذ يتحدث عن أمه شعرت أن صوته قد خفت كأنه منبعث من أعماق بعيدة ، واستطعت أن أعرف من كلامه أن أمه كانت ممثلة فرنسية عظيمة ، فقد رأيت على البيان صروحة ثمينة مهداة إليها من الأمبراطورة أوجينى ؛ ولـكنه لم يذكر أباه طوال ذلك الحديث

لقد اعتدت الذهاب إليه كل يوم خميس منتهزاً فرصة خروج زوجى لزيارة عمتها العجوز فكانت كل زيارة تحمل إلى قلبى اللذة والسرور . لم يعرف شيئاً عن عالى كما أنى لم أعرف شيئاً عن عاله . وأخيراً وقعت تحت سلطان رقيته ، وسرعان ما أدركنى الاشفاق على وحدته ، فأرسلت إليه أنا وزوجى بعض الهدايا وبعض النبيذ ، وكانت زوجى تصغرنى فى السن وهى كلفة بالرقص والمسرح ومجالس الطرب . ولا غرابة فى هذا فهى لم تزل فى شبابها النضر وجمالها المتفتح وعمرها الغض . إن شعرها .. لا ، إنى أستطرد فى هذا ... اتفق يوماً أن تقابلنا مع الممثل فى أحـد الأزقة فرأيت تغييراً كبيراً فى البطل الذى أعبده ، فقـد كان راتعاً فى ذلك اليوم يزرى بأشد الناس أناقة وجمالا . فلما قدمت إليه زوجى أمسك بيدها ثم قال :

حقاً إنها لفرصة سعيدة !

إن هذه الـكلمات لا تحمل سحراً ما دامت مرسومة فى حروف ، ولـكنها سحرت « أليس » فاحمر وجهها وفاض قلبها وشعرت أنه إنسان عزيز عليها

ثم مضت الأيام وأنا دائب على زيارته كلف بالوقوف على آثاره ومخاطراته الأولى ، حتى توثقت بيننا المودة ، وقويت الألفة ، وأصبحت أجد من نفسى الجرأة على فتح أدراج مكتبه والتطلع إلى كل ما بالغرفة من صور وآثار . حتى رأيت فى إحدى الليالى وقد تأخر بنا الوقت واستهوانا الحـديث ذلك الفستان الأبيض الصغير . لقد كان فستان فتاة صغيرة قد وضع كما طواه صانعه فى أعلى الصندوق . فأخذته فى يدى ودنوت منه وهو يرتشف شرابه وقلت له : « ما هذا يا مستر برانكيز ؟ » فحدق النظر فى الفستان وسرعان ما أدركت عليه الارتباك والدهشة وأحسست بشىء من الألم والندم يشيع فى نفسه وهو صامت ذاهل فاقتربت منه وربت على كتفه وقلت : « إنى آسف ! لا شك أن هناك قصـة ينبغى ألا ... »

فأمسك بذراعى وتمتم قائلا : « لا ، لا ، حسن

يا بني . سأخبرك بهذا فيما بعد . ثم هب واقفاً وأخذ يخطو في الغرفة جيئة وذهوباً دون أن ينطق بكلمة . ثم التفت إليّ فجأة ووضع يده على كتفي وقال : « فلتأت إليّ غداً ، ولتحضر زوجك معك . سأنتظركما على العشاء فسوف أحدثكما عن ذلك الفستان الأبيض الصغير »

لقد كانت زوجي ذاهبة إلى المرقص في ذلك اليوم . ولشد ما أدهشني أن رأيتها ترحب بزيارة مستر برانكير حتى أنني شعرت بشيء من الضيق لصاحبتها إياي . لقد كانت معتادة تناول العشاء في أحد الفنادق الكبرى ، فكيف ترضى بتناول الطعام في بيت ذلك الممثل الفقير ؟ فنصحت إليها أن تلبس أقدم ما عندها من الملابس وأن تتناول بعض الشطائر قبل ذهابها ، ولكنها لم تقبل نصحي وارتدت أفخر ثيابها . فاستسلمت للأمر إذ لم يكن الاحتجاج ليجدي نفعاً . ومن هنا كانت دهشتي الثانية :

كان برانكير في لباس السهرة فأثار في هذا اللباس شعوراً خاصاً لم يتركني طول الليلة ، فقد لاح لي أن زوجي وبرانكير من عالم غير عالمي . فأخذا يتجاذبان الحديث في ألفة ووداد ، فيحدثها الشيخ في وداعة ولطف ، ثم تجيب عليه بنظرات مشتاقة أخاذة حتى شعرت أني أكبرهما بأجيال وإن كان برانكير يكبرني بأعوام

وفي العشاء كانت الدهشة الثالثة ، فقد كانت المائدة تفيض بأنواع من الأطباق التي تنم على سلامة الذوق ، وكانت الأنوار الكهربائية تسطع على أكواب الخمر وفناجيل القهوة . وبعد أن فرغنا من الطعام دعانا مضيفنا إلى الجلوس حول المدفأة ثم قدم إلينا شراباً وأخذ يقول : « لقد بعث به إليّ أحد الأصدقاء الأعزاء ، ولكنه واأسفاه قد مات ميتة شنيعة » ثم أمرّ يده على جبينه كأنه يحاول أن يدفن تلك الذكرى المؤلمة . وأخيراً التفتت إليه زوجي وقالت مازحة :

— ألست تنوي أن تحدثنا عن ذلك الفستان الأبيض ؟

فرفع رأسه الجميل المكلل بالشيب ثم مدّ ذراعه الطويل فأمسك بيد زوجي وضغط عليها وقال : « أرجوك أيتها السيدة العزيزة أن ترتشفي هذا الكأس لذكرى صديقي القديم » ثم أخذ يرتجف وهو يدني كأسه من شفتيه ولكنه كان لا يزال تأثر العاطفة فأعقب الأولى بأخرى

لقد كنت مخموراً بصداقة ذلك الممثل وما لديه من ذكريات وآثار فأشرت إلى الصورة التي كانت مهداة إليه من « هنري ارفنج » بتوقيعه « إلى صديقي العزيز ... » ولكن برانكير هزّ كتفيه وأخذ يتنهد تنهدات عالية . ربما لم يكن يجد في هذه الآثار ما يدعو إلى الفخر ، وربما كانت هذه في نظره شيئاً تافهاً

ثم أعادت عليه زوجي سؤالها عن الفستان . فانحنى أمامها ومضى في صمت إلى الصندوق ثم عاد به ونشره في خشوع وتقديس على ظهر المقعد ، فعجبت أليس لمرآه ، أما هو فقد أخفى رأسه بين يديه وغاب في صمت عميق ، فبقيت أنا لا أفكر إلا في ذلك الموقف الرهيب الذي وجدت فيه نفسي ، فقد كانت الغرفة كلها مثقلة بالذكريات ، وكانت زوجي قابعة في مقعدها تسطع على وجهها الجميل الشبيه بوجوه الأطفال الأنوار فتزيدها فتنة وجمالاً . وفي الجانب الآخر من المدفأة جلس الشيخ في شعره

الأبيض المتموج كأنه ماثل يتحدث عن ماض حافل بالمآسى والآلام . ثم الفستان الأبيض الصغير ! !

وفجأة اندفع الشيخ يقول : « كان هذا قبل أن تأتيا إلى هذا العالم ، فأنكما لاتذكران فرقة تشارلس كارسيد الشهيرة التى كانت تعمل تحت اسمينا . لقد كنا نمثل فى مسارح حاشدة وكنا فى تلك الأيام ...

ثم التفت إلى واستأنف حديثه قائلاً : « كان هناك ممثلون ! فاللهاة والمأساة والقصة التاريخية ، كل هذه كان لها نصيب كبير من عنايتنا ، حتى لقد كنا نغير أسمارنا كل ليلة بل مرتين فى الليلة الواحدة . كذلك كنا نغير أدوارنا ، فقد كنت أقوم بدور « عطيل » مرة ثم « ياجو » فى ليلتين متعاقبتين . كذلك كان صديقي أوبان ، فقد كان يترك لى دور « شيلوك » ويأخذ منى دور « بسانيو » ... أوه . لن أثقل عليكما بهذه التفاصيل . آه . أوبان تيرى المسكين ! صديقى العزيز تيرى !!

ثم وقف عن الكلام وأطرق إلى الأرض وشملنا صمت رهيب !

ثم استأنف حديثه قائلا : « إذا ما قلت لكما إننا كنا أصدقاء فإنى أعنى بهذا أننا كنا أصدقاء كما يمكن أن يكون الفنانون حباً وإخلاصاً وتفانياً . لقد عملنا معاً ثلاث سنوات لم تعرف الغيرة طريقها إلى نفوسنا ، ولم يدب الحقد يوماً إلى قلوبنا

آه على تلك الأيام !!

ثم مد أصابعه البيضاء وتفرس فيها ثم التفت إلى زوجى وقال :

« أرجوك أيتها الفتاة (وقد أصر على أن يدعوها هكذا طول الوقت) أن تعذريني لما سأقصه عليك الآن . فقد كان الحب فى أيام شبابى غيره الآن . لم يعد الحب اليوم إلا اغتنام فرص . ما من أحد لديه الاستعداد للتضحية . أما الحب بينى وبين أوبان فقد كان قصة التضحية والفداء . وكان المحك لهذا انضمام « صوفى » إلى فرقتنا

ثم هب واقفاً وأخذ صوته يرتجف ويخفت حتى أصبح همساً !

ثم التفت إلى اليس وقال : لقد كانت جميلة فاتنة مثلك أيتها الفتاة ! كيف أبوح بهذا السر الهائل الآن من غير وعى !!

نظر كل منا إلى صاحبه ولكننا لم نقل شيئا . لم نشر إليها فى حديثنا فقد كان كل منا حريصاً على شعور صديقه . غير أنى لو لم أكن أعرف حب أوبان لها لذهبت إليها وقلت « صوفى ! معبودتي ! ملاكى ! إني أحبك . إنى أعبدك ! ألا تتزوجين منى ؟ ولكن هل كان من البطولة أن أفعل هذا ؟ وأنا أعرف عواطف أوبان نحوها ! إلى أن أحسست يوماً أني لا أستطيع حبس عواطفى فنظرت إلى صديقى فرأيت فى عينيه ماشعرت به فى قلبي فدنوت منه وهمست فى أذنه : « أيها الزميل فلتتقدم أنت ولتكسب ذلك القلب ، إنها جديرة بك ! » فأدرك ما أبغى ثم ضغط على يدي وقال : إنك محق يا صاح . إن هذا لا يمكن أن يبقى طويلا . فالتقابانى بعد الحفلة فى غرفتي

ثم دنا الممثل من زوجى وقال : « إنى لا أستطيع أن أحدثكما عن ذلك الغرام الذى حفل به لقاؤنا فى تلك الليلة . فقد أراد كل واحد أن يفسح الطريق لصديقه . حقاً إنها كانت ساعة رهيبة مثيرة ! وأخيراً قرّ عزمنا على ترك المسألة للظروف . ثم انصرفنا إلى لعبة الشطرنج ، فصففنا القطع وبدأنا نلعب ولكننا

لم نلبث أن وجدنا أن كل واحد منا يحاول أن يترك الفوز لصديقه فنهضت وقلت له : « يجب أن نترك الأمر إلى القدر الذى لا يعرف التحيز ! »

ثم تناولت أكبر وردة كانت أمامى وقلت سأعد أوراق هذه الوردة فإن كان العدد كبيراً فسأتركها لك . ثم أخذت أعبث بالوردة حتى وصلت إلى الثامنة والخمسين امتقع وجهه وارتجفت مفاصله فأوصلته إلى مقعد مريح وأعطيته منبهاً . ثم التفت إلى النافذة فرأيت الطيور ترفرف حولها وأشعة الفجر قد أخذت تلوح من وراء الزجاج

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى كنت جالساً إلى صوفى أبثها غرامى . ولكن هناك أشياء لها من القداسة ما يجعلنى أتردد فى ذكرها

لقد رفضت ، ولكنها كانت رقيقة عذبة حتى فى رفضها ، ومع ذلك فلم تكن قد وصلت إلى رأى حاسم فى الأمر . فاستولى علىّ نوع من اليأس القاتل. وليس هذا غريباً عنى فإن الإنسان في تلك السن يطلب كل شئ فى وقت واحد . فبقيت أداعبها أسبوعاً صباح مساء ولكنها بقيت مترددة !

لقد كانت تميل إلىّ ولكنها لم تكن تحبنى . وفى نهاية الأسبوع ذهبت إلى أوبان وقلت له : « أيها الصديق لقد جاء دورك فقد قمت بدورى »

ثم خرجت من الميدان . ولا أزال حتى الآن أذكر ذلك الأسبوع الذى رأيت فيه أعز أصدقائى يحب الفتاة التى أعبدها !

وفى نهاية الأسبوع جاءنى صديقي يقول : « إنى لا ادري مكانى الآن . فهى تميل إلىّ ولكنى لا أكاد أعتقد أنها تحبنى »

لن أسرد عليكما تفاصيل مغامراتنا التى حدثت بعد ذلك . ولكنا عندما رأينا الموقف متماثلاً عزمنا على أن ننزل ميدان الكفاح فى معركة مكشوفة وإلا فقدناها نحن الاثنان . فقر رأينا على منازلتها فى أى وقت وفى أى مكان . ومضينا فى هذا الشوط ثلاثة أشهر . وفى النهاية كان أوبان الفائز . فبقيت أترقب فى كل لحظة تلك الأخبار المزعجة السارة إلى أن حدث أمر كان مستوراً

ثم غاص فى كرسيه وأخذ يمر أصابعه فى شعر رأسه فى خفة وسرعة . ثم استأنف حديثه فقال : « فقد توفى عمّ أوبان وترك لابن أخيه ثروة هائلة ، ثروة لايحلم بها البخيل ، ففرح بهذا جميع أصدقائه إلا شخصاً واحداً » . ثم نظر إلى زوجى وتنهد قائلا : « لقد عشت أعواماً طويلة ولكنى وجدت أن قلب المرأة عميق لا يمكن ارتياده وسيظل هكذا إلى الأبد ... فقد رفضت صوفى أن تتزوج من أوبان مخافة أن تتهم بأنها رضيت به زوجاً من أجل ثروته . إنى لن أنسى ألم تلك الأيام وهولها . لقد أعلنت رفضها فى صراحة وقوة ، وبقيت أنا موزعاً بين حبى لأوبان وحبى لصوفى ... إنى أستطيع أن أقول بكل صدق : إن المال قتل أوبان . فقد أخذ يبعثره فى الشراب واللعب وعاش عيشة التبذل والسرف لا لشىء إلا لأن المرأة التى أحبها رفضت أن تتزوج منه ... ثم مالبث أن أغرم بمخلوقة جميلة تسمى أنابيل فتزوجا وأعقبا طفلة

كانت ألسنة النيران تندلع وزوجى محدقة النظر فى عينى الممثل وهو ماض يقول : « وهنا بدأت أنظر إلى المرأة من جديد ! فان صوفى التى رفضت أن تتزوج من أوبان لأنه غنى ، والتى كانت

تضطرم غيظاً إذا مارأت أنابيل قد أغرمت بطفلتها الصغيرة . لقد صبرت عليها كثيراً أملاً فى إرضائها وكسب قلبها ... ولكنى لم أفلح ... أتصدقان أنى أعيش عشر سنوات عبداً لها وهى تقضى هذه المدة عبدة لتلك البنت الصغيرة ؟ !

لقد ضحيت كل شىء من أجل أن أصحبها فى جولة أو أتحدث إليها فى زيارة ، ولكن المرأة التى كانت تعبث بى كدمية صغيرة كانت تكرس وقتها ومالها لشراء اللعب والفساتين لابنة أوبان ، أتتصوران هذا ... ؟ ! »

فأجابته زوجى للمرة الأولى : نعم . فأشار إليها الرجل برأسه وقال : ما من عمل يكون بين الرجل والمرأة إلا وتكون نتيجته ضرراً للرجل

فى النساء إلهامات وأحاسيس خفية نتفقدها فى نفوسنا فلا نجدها ، فالمرأة مسلحة من كل جانب وهى أوسع حيلة من الرجل وأكثر استعداداً

ولكن لم يمض عامان على زواج أوبان حتى استيقظ ذات ليلة وقد شعر بألم شديد فأسرع إلى دواء كان يتعاطاه دائماً ولكنه طاش هذه المرة فتجرع حامضاً كانت سوفى قد أحضرته لتحميض الصور . فاندفع إلى الشارع وهو بملابس نومه وأسلم روحه بين أذرع الشرط

لقد كان هول ذلك الحادث مطبوعاً على جبينه فتألمنا لسماعه حتى كادت الدموع تنبجس من أعيننا

ثم تقدمت بنا السنون وحب سوفى لابنة أوبان يزداد واهتمامها بها يشتد ، إذ كانت أمها برغم الثروة التى تركها زوجها لاتزال تحن إلى ماضيها الملوث المستهجن حتى خشينا على أخلاق الابنة منها ولا سيما أنها لم تكن دائمة السهر عليها إذ كانت تزورها من وقت إلى آخر ، فتحضر لها أثمن الملابس و أفخر اللعب ثم لا تلبث أن تنقطع عنها وتنساها . فنشأت الفتاة على طباع أمها مخمورة مسرفة مستهترة ! فلم يكن يهمها فى الحياة وهى الفتاة التى لم تتجاوز العاشرة إلا الزينة والتبرج . غير أنها طفلة جميلة فاتنة ! فقد كان فيها كل جمال أمها مع بعض رشاقة والدها وخفته . فتركت الفتاة وشأنها مجالس الفتيات الساقطات وتستمع إلى الكلام السوقى والنكات النابية .

لقد أحبت لوسى عمتها سوفى (كما كانت تدعوها) لا لشىء إلا لأنها كانت تغدق عليها اللعب وتغمرها بحبها القوى العنيف إذ كانت تكتب إليها كل يوم وترسل إليها الهدايا من وقت إلى آخر .

ثم جفف الشيخ جبينه كأنه كان يزح تحت أعباء ذكريات ثقيلة مجهدة ، ثم نهض إلى إحدى زجاجات النبيذ وملأ كأساً وأفرغها فى فيه ، ثم أعقبها بأخرى ، ثم عاد إلى مكانه وهو ذاهل عنا كأنه يعيش فى ماضيه البعيد ، ثم التفت إلى زوجتى وقال :

— لدى كثير من الفساتين الجميلة التى كانت سوفى تصنعها للوسى يمكنكما أن تريا إذا سمحتما بزيارة أخرى

قال هذا فى توسل ورجاء حتى أننى أحسست أن قلبى يكاد يقطر دما ! !

أما زوجى فقد كنت أعتقد أنها ستقوم فى تلك اللحظة وتجول فى الغرفة باحثة عن باقى الفساتين ، ولكن ما أشد دهشتى إذ رأيتها صامتة فى مكانها تنظر بعين حائرة لا يعرف معناها إلا بنات جنسها ! ثم مضى الشيخ فى كلامه كأنه يتحدث إلى نفسه :

والفساتين ! أى دور تلعبه الفساتين فى حياتنا ! لقد كان كارليل صادقاً فى قوله هذا . لقد كانت صوفى ماهرة فى أشغال الإبرة وقد ساعدتها تجاربها فى المسرح على هذا فكانت تصنع أروع أنواع الفساتين .

إن أزمة حياتى التى سأحدثكما عنها كان بسببها أحد تلك الفساتين التى صنعتها للوسى . ثم صمت قليلا وأخذ يدق على المائدة بيديه الجميلتين ثم قال : « كان هذا العام الفائت فى العيد العاشر لميلاد لوسى ، وكانت أنابيل قد تردت فى الهاوية حتى لم يعد هناك أمل فى إنقاذ الفتاة ، حتى أحسست بهذا ، أنا الذى تحطمت حياته على حب صوفي لتلك الفتاة . لقد كان قلبي يتمزق من أجل ابنة صديق ! فقمت مع صوفى برحلة طويلة فى الخريف ، وقد كنت معها التابع المطيع . ولكن الجو كان رديئاً والمرض متفشياً . فأصابها برد ما لبث أن انقلب نزلة صدرية ، وفى أثناء مرضها جاءها خطاب من لوسى تطلب منها فستاناً جميلا يزرى بفساتين زميلاتها يوم عيد الميلاد . فتهلل جبين صوفى وشاع الفرح فى كل قلبها . إيه ربى ! لقد كانت تحلم فى أشد حالات المرض بالهدية التى ترسلها إليها . وأخيراً قالت لى : « سأصنع لها فستاناً خالياً من أى زركشة ، وإنى واثقة من أنه سيزرى بباقى الفساتين بفضل جمال لوسى . فأعجبت برأيها ومضيت معها نشترى الفستان

ثم اشتد عليها المرض فى الأيام الأخيرة حتى أنها لم تعد تتحرك إلا بفضل تلك الطاقة العصبية التى بقيت حية فيها حتى تتم الرحلة وتنجز فستان لوسي قبل مجىء العيد .

وأخيراً عدنا إلى لندن وقد اشتد بها المرض ولم نكن قد أعددنا المنزل فتركتها فى صحبة صديق لى ومضيت كالمجنون إلى حيث تقيم لوسى . فألقيت بنفسى فى إحدى العربات وألقيت بالعنوان إلى الحوذي وأمرته أن يطير بى إليه . ثم وضعت الفستان على ركبتى وانحنيت عليه فى رقة وحنان كما لو كان طفلاً يحتضر

لا أدرى كيف وصلت إلى هناك فقد خيل إلىّ أنى سابح فى الأبدية

لم تكد ترانى لوسى حتى صاحت قائلة : مرحباً لقد ظننت أن عمتى صوفى قد نسيتنى فاستأجرت هذا الفستان !

فأجبتها : بنيتى إن عمتك لم تنسك بل كانت تجود لك بآخر قطرات قلبها . هاك الفستان . فأخذته فى يديها وألقت عليه نظرة فاحصة وقالت : أفستان هذا أم جلباب نوم ؟ لست فى حاجة إليه ، ثم انسلت إلى غرفتها

فلم أتمالك نفسى من الغيظ وهممت أن أفتك بها لولا أنى تذكرت أنها ابنة صديق القديم

كيف أعود إلى صوفى بالفستان ثانية وهى تجود بآخر أنفاسها ؟ فأردت أن أحتفظ به كأعز شىء لدى الحياة !

* * *

فلما خلوت إلى زوجى فى منزلى سألتها : ما الفارق بين الواقع والخيال ؟ فأجابتنى وهى تطفئ نور الغرفة : إنى لا أعرف ما يتفلسف به الناس ولا أعرف من الحياة إلا أنك زوجى العزيز الساذج

فقلت لها : ماذا تعنين يا أليس ؟

أجابت : أنى لك أن تدرك طبائع المرأة !

ثم أصرت على النوم ! !

نظمى خليل